بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرهـــمْ وتُزَكِّيهم بها وَصَل عليْهِمْ إِنَّ صلاتَكَ سَكَنٌ لَـــهمْ وَاللهُ ســـمِيعٌ عَليـــمٌ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[التوبة : الآية ١٠٣]

تحدثنا فى الفصل السابق عن الصلاة ومعانيها وحكمتها الإيمانية ومعانيها الحضارية ، وهذه المرة نتحدث عن الزكاة وهى توأم الصلاة ، والعبادة الثانية فى الإسلام ، ونفصل مغازيها ومراميها الإيمانية وكيف أنها تفتح أمامنا أبواب القول والفكر فى المال ووظيفته الإنسانية فى الإسلام .

ينفرد الإسلام من بين الديانات بعبادة الزكاة ، فإن الصلاة والصيام والحج توجد فى كثير من ديانات البشر ، إلا الزكاة بمعناها ومغزاها الإسلاميين ، فإنك عندما تزكى أو تتصدق لا تعطى أخاك المسلم ، بل أنت فى الحقيقة تعطى الله سبحانه ، والله يرده على جماعة الإسلام ، وفى ذلك من التكريم والرفعة لك ولجماعة الإسلام فوق مايستحق البشر ، واقرأ الآيات التالية من سورة التغابن لتقف على جلال هذا المعنى العظيم :

﴿ فَاتَّقُوا الله مااستطعتم واسمعُوا وأطيعُوا وأنفقُوا خيراً لأنفسُكمْ ومن يوق شُحَّ نفسهِ فأولئك هُم المفلحون ، إِن تُقرضوا الله قَرْضاً حَسناً

يضاعفْه لكُم ويغْفر لكُم والله شكُورٌ حليمٌ ، عالِمُ الغَيْب والشَّهادةِ العزِيْز الحكيمُ ﴾ [التغابن ٦٤/ ١٦ ـ ١٧].

وهذه معان عظيمة تريك جوانب شتى من جلال الإسلام وفضائله ، فإن الله تعالى يعرف أن الإنسان شحيح بماله مع أن المال على الحقيقة ليس ماله ، إنما المال كله لله ، وهو يستخلفنا فيه ، ولكن الإنسان شحيح بمالا يملك ضنين به على الآخرين ، وهذه غريزة فيه ، وهى ككل الغرائز ركبها الله فى طبعه الحيوانى لكى يحافظ على كيانه ، والله يأمرنا هنا بالتقى والطاعة لأن الطاعة تفتح لنا أبواباً من رضا الله وخيره علينا ، ثم يأمرنا بعد ذلك بأن ننفق من مالنا فى سبيل الخير . ويقول إن هذا الإنفاق ليس إحساناً على الآخرين . بل هو إحسان لأنفسنا ؛ لأننا فى الحقيقة لا نعطى الآخرين بل نقرض الله جل جلاله ، لأن المال الذى سنعطيه ليس مالاً ضائعاً ، بل هو قرض يرده الله علينا بأحسن مما أعطينا ، فهو يضاعفه لنا ويتفضل علينا بمغفرته ، والمغفرة فى ذاتها خير لا يقدر ولا يكتفى الله بمضاعفة القرض والمغفرة ، بل هو يشكرنا على ذلك ، لأن الله على رفيع قدره شكور حليم . والله عندما يشكر عباده المحسنين يعلمنا الشكر ، وهو من أعظم الفضائل .

وقد أحسن الخليفة هارون الرشيد على رجل بشىء من المال عندما حدثه بأمره القاضى أبو يوسف يعقوب ، فأخذ الرجل المال ومضى ، فقال له أبو يوسف : لم أرك شكرت أمير المؤمنين فقال الرجل : إنما أشكرك أنت لأنك أنت الذى كلمته فى شأنى ، فقال له أبو يوسف لو عرفت هذا من جحودك لما كلمت أمير المؤمنين فى شأنك قم يارجل فاشكر أمير المؤمنين ، فإن القلوب ترتاح إلى الشكر ، والله سبحانه أحب الشكر من عباده وجعل قلة الشكر مقابلة للكفر ، قال جل وعلا مخاطباً بنى إسرائيل : ﴿ **وإذْ تأذنَ ربُكم لئن شَكرتُمْ لأزِيدنكُمْ ولئِن كفرتمْ إنَّ عذابِي لشدِيدٌ** ﴾ [إبراهيم ١٤/ ٧].

وفى عصرنا هذا الذى عظم فيه شأن المال واشتدت حاجة الناس إليه تزداد إدراكاً لمعانى الزكاة وفضيلة الإنفاق فى سبيل الله ، ونزداد فهماً لوظيفة المال فى الإسلام ، لأن المال كما نعرف ليس غاية فى ذاته ، وإنما هو وسيلة لجلب المنافع ، ومن ثم فإنك لا تملك إذا ملكت المال لذاته ، ولا يغنى مال الدنيا كلها عنك شيئاً إذا أنت جعت أو عطشت أو مرضت ولم تجد الطعام أو المال أو الدواء . وأنت كذلك لا تشعر بطعم السعادة إذا أنت ملكت المال وحدك ، والناس من حولك فقراء ، والله سبحانه خلقنا ـ نحن المسلمين ـ أمة واحدة ، وأحب منا أن تكون قلوبنا واحدة ، ولاشىء يرقق القلوب كالعطاء الكريم يقدمه الإنسان للمحتاج عن نفس طيبة راضية .

ولهذا فقد فتح الإسلام قلوبنا على الحقيقة الكبرى وهى أن المال كله لله ، وهو سبحانه يعطى منه من يشاء قرضاً حسناً منه لعبده لينتفع به فى معايشه ، ويعين به أخاه ماعاش ثم يعود المال بعد ذلك لله ، والإنسان زائل ، ولكن المال باق فى الأرض ، والباقى يبقى مع الباقى الدائم وهو الله . والسعيد العاقل منا هو من ينتبه إلى هذه الحقيقة ، ولهذا فإن الله يقول لرسوله الكريم فى الآيات التى جعلناها مَدَارًا لهذا الفصل ﴿ **خُذ مِنْ أموالهم صَدقة تطهرهُمْ وتزكيهِمْ بها** ﴾ ، والرسول لن يأخذ المال لنفسه ، بل هو يأخذها لكى يعين بها صاحب الحاجة ، بل هو لا يأخذها أصلاً ، لأن الزكاة ليست ضريبة ، والإنسان لا يؤديها كما تؤدى الجبايات ، ولهذا فإن الفعل الذى يستخدمه القرآن فى شأن الزكاة هو « آتى » أى أخرج من ماله طواعية ومحبة لله :

﴿ **ليسَ البِر أن تُولُوا وجُوهكُم قِبلَ المشْرِق والمغرب ولكن البر من آمَنَ بالله واليوم الآخِر والملائكة والكِتاب والنبيينَ وآتى المالَ على حُبِّه ذَوى القربى واليتَامَى والمَسَاكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ والسَّائلين وفى الرِقابِ وأقامَ الصلاة وآتى الزكاةَ** ﴾ [البقرة ٢/ ١٧٧] .

وفى هذه الآيات التى استشهدت بها فى مقام اخر من تلك الدراسة نجد ان إيتاء المال للمحتاجين يأتى بعد الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والنبيين ، لأن المال كما نعرف عصب الحياة ، وهو الشيء الوحيد الذى يعانى الإنسان عندما يخرج عنه ، فإنك قد تدعو صاحباً لك للطعام فى بيتك وتنفق فى ذلك نفقة كبيرة ولكنك تفعل ذلك عن مسرة ، ولكن نفس صاحبك إذا طلب منك قرضاً عشرة جنيهات فحسب وجدت صعوبة فى العطاء ، ثم إنك لن تنسى قط أنه استدان منك هذا المال ولن تستريح إلا إذا رده إليك فإذا هو لم يرده بقى فى نفسك من ناحيته شيء .

وهنا تتجلى لك فضيلة الإسلام الذى يقول إن المال الذى فى يدك ليس مالك وإنما هو مال الله ، وليس لك فيه إلا حق الارتفاق أى الانتفاع ، وفى النهاية ومهما طال عمرك وكثر مالك فأنت راده إلى الله وخارج من الدنيا عرياناً كما دخلتها ، ولا يبقى لك من هذا المال إلا ماتصدقت به ، فهذا يبقيه الله عليك ويثيبك عليه ، أما ما أنفقت فى طعامك وشرابك ومتاعك فهو زائل بزوالك ، فإن المال كله لله ، وفيما أمرنا الله به فى شأن ماملكت أيماننا نقرأ : ﴿ وآتُوهم من مَال اللهِ الَّذى آتاكُمْ ﴾ [النور ٢٤/ ٣٣] .

فالمال كله عطاء الله سبحانه ، قد سئل أحد الصالحين عن بيت يملكه فقال : إنه لله فى يدى ، ومهما بلغ مالك فكله لله فى يدك ، وأنت لا تملك منه شيئاً ، فإذا أنت لم تؤمن بهذا وتتصرف على أساسه فقد خرجت على حكم الإسلام فى المال ، لأنك ستجد بعد ذلك أن المال الذى تحسب أنك تملكه هو الذى يملكك وأنت عبده . أعاذك الله من رق المال وذله .

وأنت إذ تخرج الزكاة من مالك فأنت تطهره وتجعله حلالاً ، فإذا أنت لم تخرج الزكاة من مالك ظل المال نجساً غير طاهر ، ومن هنا فأنت لست حُراً فى

شأن الزكاة تؤتيها أو لا تؤتيها ، فهى حق المال عليك ، وأنت تعطيها لمن يستحقها ، وقد حدد الله لك ذلك ووكلك فى ذلك إلى نفسك ، فهى مسألة تقدير ، ومن هنا فإن الأحناف أجازوا إيتاء الزكاة للرجل القوى القادر على العمل إمعاناً منهم فى إطلاق حرية الإنسان فى العطاء ، ويسرف بعض الفقهاء فى تصوير تطهير الزكاة للمال فيقولون إن الصدقات أوساخ الناس ، أى هى الخزب من المال الذى إذا خرج منه طهر ، وهذا إسراف منهم فى التخريج لأن المال نعمة من نعم الله ، والنعمة لا توصف أبداً بأنها وسخ ، ومن مذاهبهم فى ذلك قولهم إن الصدقة لا تجوز على آل البيت ، لأنها مال غير طاهر ، وهذا أيضاً مذهب فيه إسراف ، وماذنب الرجل من آل البيت تشتد حاجته للمال فيحرم منه لمجرد أنه من آل البيت ، وقد أنكر هذا الرأى أبو يوسف فى كتاب الخراج ، وجعل لآل البيت نصيبهم من بيت المال على أساس أنهم من ذوى القربى .

والحسن الشيبانى : قال إن لكل منا ذوى قربى ، ولكن آل البيت هم ذوو قربى لكل مسلم ، فهم آل بيت الرسول رحمة الله للعالمين ، وكل مؤمن صادق إنما هو على الحقيقة ذو قربى لرسول الله ﷺ ، لأن القرابة الحقيقية فى الإسلام إنما هى قرابة الإيمان والروح والإحساس ، وقد قال رسول الله فى كتابه بين المهاجرين والأنصار إن المؤمنين المتقين بعضهم موالى بعض من دون الناس ، والولاء لحمة كلحمة النسب ، وقد بلغ رسول الله بسلمان الفارسى غاية التكريم عندما قال : سلمان منا آل البيت .

والزكاة ليست فضلاً من المؤمن على أخيه ، بل هى واجب عليه وقد قرر الله سبحانه ذلك عندما قال فى سورة الذاريات : ﴿ **وفى أموالهم حق للسائل والمحروم وفى الأرض آياتٌ للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرُون وفى السماءِ رزقكُم وماتوعدون** ﴾ [الذاريات ٥١/ ١٩ ـ ٢٢]

وفى هذه الآيات الكريمة من جليل المعانى الإسلامية ماإن شئنا أن نكتب فيها مجلداً لكتبناه ، وما دامت إسلامية فهى إنسانية ، فإن كل ماهو إنسانى إسلامى لأن القرآن الكريم ـ دستور الإسلام ـ إلهى بمصدره إنسانى بغاياته ، وكلماته رباط متصل بين الحق وحقائق الكون ، والله سبحانه هو الحقيقة الكبرى فى هذا الوجود كله . . وأظن أن هذا المذهب فى فهم عبادات الإسلام كان مذهب الإمام الشافعى ، فقد كان يرى أن كل ماينفع الناس فهو من الإسلام مالم يكن فى شأنه تحريم من الله ، ومن بديع مانلاحظه عندما نتأمل آيات الزكاة فى القرآن العظيم هو أنها لا ترد وحدها إلا فى النادر ، وقد أشرنا إلى أنها فى الغالب مقترنة بالصلاة ، وهذا جمع بين حق الله وحق المخلوق ، فلننظر فى آيات أخرى من آيات الزكاة لنرى ارتباطها بفضائل حضارية أخرى لكى يتجلى لنا الجانب الحضارى فى الزكاة استكمالاً لمذهبنا فى هذه الفصول من القول بأن الإسلام كله حضارة .

﴿ ولينصُرنَّ الله منْ ينصُرُه إن الله لقوِى عزيز . الَّذين إنْ مكناهُم فى الأرضِ أقامُوا الصَّلاةَ وآتوُا الزكَاة وأمرُوا بالمعروفِ ونَهوْا عنِ المنكروللهِ عاقبةُ الأُمور ﴾ [الحج ٢٢/ ٤٠ ـ ٤١] .

فهنا ترى الزكاة مرتبطة بالصلاة ، وهى مرتبطة كذلك بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم إن إيتاء الزكاة يجىء هنا مظهراً من مظاهر شكر الإنسان لله على التمكين له فى الأرض ، والتمكين للأمة يكون بتقويتها وتثبيت أقدامها وهدايتها إلى التزام الخط الإسلامى السياسى والسلوكى ، أما بالنسبة للإنسان فهو تيسير الله الرزق للإنسان والتوفيق والسعة فيه وهنا تكون الزكاة ـ إلى جانب فضائلها الأخرى ـ رباطاً جديداً من الروابط التى تشد الإنسان إلى خالقه وتزكيه وتطهره ، أما واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهو من فضائل الإسلام الكبرى ، لأنه أمر بالإصلاح ، والأمر هنا موجه إلى الجماعة فى المكان الأول . لأن الإنسان المفرد عندما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وحده لم يصل إلى كثير

أما الجماعة الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر فهى جماعة صالحة تخدم نفسها وتصلح أحوالها ، وفى المرات الكثيرة من تاريخنا التى انتدب أفراد أنفسهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونصبوا أنفسهم مصلحين لم يؤد الأمر إلى خير كثير . لأنهم يجدون أنفسهم لا محالة متجهين إلى طلب السلطان لأنفسهم ، وهنا ينحرفون عما انتدبوا أنفسهم له انحرافاً خطراً وقد كثر كلام الفقهاء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكنهم نظروا من زاوية الفقه ، أما نحن فننظر من زاوية التاريخ ، وتاريخ الحضارة بصفة خاصة ، وتجارب التاريخ تقول إن الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد يبدؤها رجل وتستجيب له الجماعة فتدخل فى حركة إصلاحية ، وهنا ينبغى على صاحب الدعوة ألا يتمسك بالرياسة والقيادة ، بل يدع الدعوة عامة لمن يريد أن يدخل فيها ، وذلك حتى لا ينحرف به الطريق فيتحول إلى صاحب سلطان فردى ، وهنا لا تؤمن العواقب

المهم لدينا أن الزكاة تأتى هنا فى إطار أخلاقى عام ، لأننا إذا نظرنا إلى نسبة الزكاة من مال الإنسان وجدناها شيئاً هيناً جداً ، فهى لا تزيد على اثنين ونصف فى المائة من المال المتحرك فى المعاملات والكسب ، أما المال الذى يعيش منه الإنسان فلا زكاة عليه ، فأنت إذا ملكت داراً تسكنها أنت وآلك ولا تملك غيرها فلا زكاة عليك فيها ، وإذا كان لك راتب على قدر مطالبك فلا زكاة عليك فيه وهنا يكمن الفرق اليسير العظيم فى نفس الوقت بين الزكاة والصدقة ، فإن الزكاة هى المفروضة ، أما المال الذى تخرجه طواعية على حب الله فهو الصدقة ، وهنا لا حدود فأنت وإنسانيتك ، وأنت وإيمانك ، وفى الآية التى اتخذناها محوراً لهذا الفصل نجد أن الله سبحانه يأمر بالصدقة التى تطهر النفس وتزكيها عند الله ، لأنك عندما تؤتى الزكاة فأنت تقوم بعبادة مفروضة عليك ، وثوابك عليها عظيم وكذلك يقع علينا العقاب إذا قصرنا فيها ، أما الصدقة فتشمل المفروضة وما

يخرجه الإنسان تطوعاً ، وهذه فضيلة إنسانية وحضارية ، ولهذا يأمر الله رسوله الكريم بأن يصلى أى يطلب الرحمة لأولئك الذين يتطهرون ويتزكون بالصدقة ، وصلاة الرسول علينا سكن لنا وأنس وأمان وفضل من الله عظيم .

وتأكيداً للمعنى الذى قلته من أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والحث على العبادات هى فى المكان الأول من واجبات الأمة لا الأفراد نذكر قول الله فى كتابه العزيز :

﴿ واذكُرْ فِي الكتابِ إسْماعيلَ إنه كان صَادِقَ الوعْدِ وكانَ رَسُولاً نَبِياً وكان يأمُرُ أهلهُ بالصلاةِ والزكاةِ وكان عند ربهِ مَرْضيًا ﴾ .

[مريم ١٩/-٥٤ ـ ٥٥].

فإسماعيل عليه السلام كان نبياً ، ولكنه لم يكن مكلفاً برسالة أو حاملاً كتاباً من الله الذين رفعهم إلى مرتبة الرسل أى المكلفين برسالات إلى الناس الحاملين إليهم كتباً هم الخمسة العظام وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، وهؤلاء كانوا مكلفين لمخاطبة الناس وهداهم إلى الحق وقيادتهم فى معارج الإيمان والرضوان ، أما بقية الأنبياء فواجباتهم أقل ، فهم يدعون فى دائرة من حولهم ومن قرب منهم فحسب ، ولهذا فإن إسماعيل كان نبياً ورسولاً إلى من حوله وأهله ، ولهذا كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان بهذا مرضياً من الله سبحانه ، فإذا صدق هذا بالنسبة للأنبياء فما بالك بأفراد الناس ؟ إن المطلوب منهم هو أمر أنفسهم وأهليهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، أما توجيه هذه الدعوة إلى الأمة فهو شأن الجماعة حتى لا يستخدم كل طامح وطامع موضوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى إقامة سلطان دنيوى كما حدث مرة بعد أخرى فى تاريخنا الطويل ، ويتجلى لنا هذا المعنى فى قوله تعالى فى سورة الأنبياء فى مقام الحديث عن عدد من الأنبياء منهم إسحاق ويعقوب :

﴿ قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ . وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء ٢١/ ٦٩ ـ ٧٧].

فإبراهيم عليه السلام هو النبى الرسول حامل الرسالة إلى الناس ، ولهذا تعرض للأذى والإحراق من الناس ، وتداركه الله برحمته فجعل النار برداً وسلاماً عليه ، أما إسحاق ويعقوب فكانا نبيين جعلهما الله صالحين وأرسلهما مؤكدين لرسالة إبراهيم مذكرين الناس بها ، وبهذا كانا صالحين وإمامين يهدون الناس بأمر الله ، أما الذى أوحى إليهم فهو فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعبادة الله وحده ، ولم يكلفهما الله أكثر من ذلك ، لأن رسالات الله إلى عباده معالم تحول فى تاريخ البشر ، وخطوات بالإنسانية إلى الرقى والحضارة ، ولهذا فهى قليلة لا تزيد على خمس ، بدأت بإبراهيم ووصلت قمتها على يد محمد خاتم الرسل والنبيين وحامل رسالة الله الخالدة إلى عباده ، وهى رسالة واضحة محددة باللفظ فى القرآن الكريم . فلا يجوز بعد ذلك أن يجىء إنسان ويزعم لنا أنه مكلف من الله بالدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو أنه يحمل لنا رسالة تصلح الكون ، لأن صلاح الكون منحصر فى القرآن الكريم وسيرة نبيه الكريم ، وإصلاح الكون يكون باتباع هدى القرآن والرسول .

والمتأمل فى عبادات الإسلام كلها يجدها إلى جانب فضائلها الإيمانية جماعية اجتماعية فى نفس الوقت ، فهى جماعية ، لأن بركتها لا تتم على أحسن صورها إلا إذا أديت جماعة ، وقد ذكرنا فيما مضى فضل صلاة الجماعة على صلاة الفرد ، أما الناحية الاجتماعية فى الصلاة فتبدو فى اجتماع الناس بعضهم إلى بعض فى المساجد ، وهى بيوت الله ، فيكون ذلك أدعى إلى صفاء القلوب وزوال

الخلافات إذا عرف الناس أفضال صلوات الجماعة على حقيقتها ، ولعلك تعرف أن المسلمين اتخذوا مساجدهم مدارس ومواضع للدراسة ، بل جامعات ، واتخذوها فى نفس الوقت دور قضاء ، ففى المساجد كان يجلس القضاة ويصدرون الأحكام ، والسبب فى ذلك هو أن المساجد هى بيوت الله وبيوت الناس فى آن معاً ، والإنسان عندما يذهب للصلاة فى المسجد إنما يزور الله سبحانه فى بيته ، وهذا تشريف للإنسان أى تشريف ، ثم إن أهل العلم والقضاء فى الإسلام أرادوا أن يستقلوا بالعلم والقضاء عن سلطان الدولة حتى لا يكونوا فى خدمتها ، بل فى خدمة العلم والشريعة ، ولم نعرف فى حضارتنا المدارس إلا من القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى ، وقد أنشئت دور العلم الخاصة بالتدريس أول الأمر لتعليم غير العرب اللغة العربية والشريعة ، وأول من أنشأها رجل غير عربى هو نظام الملك وزير السلطان السلجوقى ألب أرسلان ، وهو تركى سلجوقى أراد أن يستعرب هو وقومه ، أما دور القضاء التى تبنيها الدولة للقضاء فقد رفضها فقهاء المسلمين من أول الأمر واتخذوا مجالسهم فى المساجد وهى المبانى العامة الوحيدة التى ملكتها الأمة ، لأن المسجد حتى لو بناه السلطان فهو يصبح بمجرد الفراغ من بنائه ملك الجماعة ، ولا سلطان للحكومة عليه : ولهذا لزم القضاة المساجد حتى يكونوا أحراراً فى تطبيق الشريعة ويقال إن من أسباب مأساة ابن المقنع هو أنه نصح الخليفة فى رسالة الصحابة بأن يجمع الفقهاء ويجعلهم يسنون تشريعاً عاماً للدولة تحت إشراف السلطان وبماله ، وقد نفر الفقهاء من هذه الفكرة ورفضوها ، فظل أفاضل الفقهاء وأتقياؤهم وأهل الفقه والورع فيهم مستقلين سواء فى التشريع أو القضاء ، بل رفضوا كذلك رواتب الدولة ، وعندما كانت الدولة تثقل عليهم لقبول القضاء كانوا يهربون ويظلون متأبين حتى كان رجال الشرطة فى بعض الأحيان يأخذون القاضى مقبوضاً عليه ويجلسونه فى مجلس القضاء فى المسجد ، وإذا كانت

العدالة هى أساس صلاح الجماعة وأمان المجتمع ، فهذا يبين لك الفضائل الحضارية للمساجد التى هى ثمرة من ثمرات الصلاة .

أما الجانب الاجتماعى للزكاة فيتجلى فى آيات كثيرة من القرآن مثل قوله تعالى :

﴿ وهُو الَّذى أنشأَ جَنَّات معرُوشاتٍ وغير معْروشَاتٍ والنخل والزرع مُختلفًا أكُلُه والزيتونَ والرُّمانَ مُتشابِهاً وغيرُ متشابِهٍ كُلوا مِن ثمرهِ إذا أثمَر وآتُوا حقهُ يوم حصَادهِ ولا تُسرِفوا إنهُ لا يُحب المسرِفينَ ﴾
[الأنعام ٦/ ١٤١] .

فهنا يذكرنا الله ببعض آلائه فى خيرات الزروع ، وهنا حث على العمل فى الزراعة وتذكير بخيرات هذا العمل ، ولكن الأهم من الزرع والفاكهة هو أن نؤتى حقها يوم حصادها ، وحقها هو أداء زكاتها حتى تطيب وتحل لنا وتحصل بركاتها ، فإذا نحن لم نخرج من مالها حقه ، وهو حق الفقير والمحتاج وهى الزكاة لم يحل لنا ولم يصبح نعمة ، والله يأمرنا هنا بأن نشعر بأننا أمة واحدة يعين القادر منا غير القادر ، وهو لا يعينه تفضلاً منه وإحساناً ، بل يعينه بأمر الله خالقه ورازقه ، وفى آخر الآية أمر بعدم الإسراف ، لأن المال مال الله ، ولابد من إحسان التصرف فيه بالاعتدال ، وأنت ترى فى هذه الآية المباركة ميزة الإسلام فى النظر إلى المال على أنه خير جماعى ، فالأمة الفاضلة المؤمنة أمة لا فضل فيها لغنى على فقير ، فالقادر يعين غير القادر بإخراج الزكاة المفروضة ، وإذا أراد الزيادة فى الخير جعلها صدقة أى زاد فيها تطوعاً .

وقد أتيتك بالآية الكريمة التى تقول : إن فى أموال الأغنياء حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، فالعطاء هنا حق مفروض ، وهذه أروع نظرة فى شئون المال ، فإن الرأسماليين جعلوا المال نقمة ، لأنهم جمعوا المال لذاته واستخدموه أداة

لإذلال الفقراء فأقرضوهم بالربا ، وهو جريمة ، وجاء الشيوعيون فأفقروا الشعوب وجعلوا المال كله للدولة تستخدمه فى إذلال الرعية وحرمانها من الحرية ثم تستخدمه فى النهاية لصنع أدوات الدمار لكى تدخل الناس كلهم فى باطل الشيوعية الظالم الذى لا يقيم للدم الإنسانى حرمة ، ومن أسوأ ما أضرب لك من الأمثلة على نقمة الرأسمالية الجامدة القاسية أذكرك بأن الولايات المتحدة الأمريكية وهى أم الرأسمالية حولت أمريكا الوسطى وأهلها إلى مزرعة فواكه وأن تملكها كلها شركة واحدة هى الأميريكان فردت كوبانى أى شركة الفواكه الأمريكية التى استذلت دول أمريكا الوسطى بقوة الدولة وجهاز المخابرات المسمى باسم CIA وهو اختصار Central Inuestigatian Agency أى الوكالة المركزية للتحقيقات ومثيلها المسمى FBIوهو اختصار Federal Bureau of Imuestization أى المكتب الاتحادى للتحقيقات ، وكل منهما جهاز يخدم المال الأمريكى وأصحابه ، ومعظمه كما ترى مال حرام ، ثم يشكون من ضيق أهل أمريكا الوسطى وثورتهم على رأسمالية أمريكا التى ذاقوا الأمرين منها وميلهم إلى الرأسمالية الشيوعية التى لم يعرفوا ويلاتها ، ويزعمون أنهم أى الأمريكيين يحاربون هناك الشيوعية ، والناس ياسيدى تحيروا وضاقوا بين ظلم الرأسمالية من ناحية والشيوعية من ناحية أخرى ، ولا مفر لهم من ظلم إلا إلى ظلم أسوأ منه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فأين هذا من عدل الإسلام وروعة نظرته إلى المال عن طريق الزكاة والصدقة والعمل والاعتدال فى الإنفاق .

أما مثل ظلم الشيوعية الرهيب هذا ماحدث بالفعل لشعب أفغانستان عندما احتلت روسيا أفغانستان : يريدون أن يبيدوا شعباً ليزرعوا على أنقاضه مذهبهم الكافر غير الإنسانى ويزعمون مع ذلك أنهم دعاة عدل وحضارة وسلام .

وأختم هذا الحديث عن الزكاة والصدقة وفضائلهما الجماعية والاجتماعية أى

الحضارية بهاتين الآيتين :

﴿ وآتِ ذَا القُربى حَقَّهُ والمِسكينَ وابْنَ السبيلِ ولا تُبذِّرْ تَبذيراً إنَّ المبذرينَ كَانوا اِخوانَ الشياطينِ وكان الشيطانُ لربهِ كفُوراً ﴾

[الإسراء ١٧/ ٢٦ ـ ٢٧] .

وقوله تعالى : ﴿ أفَلَمْ يَرَوْا أن الله يبسط الرزقَ لِمن يشاءُ ويقدِرُ إنَّ فى ذلِكِ لآياتٍ لقومٍ يُؤمنونَ ، فآت ذَا القربىَ حقَه والمسكينَ وابنَ السَّبيل ذلِك خيرٌ لِّلَّذين يُريدونَ وجْه الله وأولئِك هُمُ المفلحُونَ ﴾ .

[الروم ٣٠/ ٣٧ ـ ٣٨] .

***